حين تُخرق السفن لتنجو الأرواح

﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾

كم من سفينةٍ خُرقت في حياتنا، فوقفنا على شواطئ الحزن نندب حظوظنا، ونتساءل بمرارة: لماذا نحن؟ ولماذا حدث هذا في هذا الوقت تحديدًا؟ وكم من بابٍ أُغلق في وجوهنا، فظننا أن الدنيا قد ضاقت، وأن أحلامنا أُجهضت قبل أن ترى النور، ثم مضت السنوات لتكشف لنا أن وراء ذلك كله حكمةً لم نكن نراها، وأن ما حسبناه خسارةً كان في حقيقته نجاة!

تأملوا قصة موسى والخضر عليهما السلام، حين خرق الخضر السفينة، فكان أول ما رآه موسى عليه السلام ضررًا لا مبرر له، وكيف لا؟ سفينةٌ تحمل أهلها، تُخرق أمام أعينهم، وكأن يدًا امتدت إلى رزقهم وأمانهم لتفسد عليهما. لكن الحقيقة التي لم تكن ظاهرةً يومها أن وراء الخرق ملكًا يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا، فكان في ذلك العيب الظاهر حمايةٌ من خسارة أكبر.

وهكذا هي الحياة أحيانًا؛ لا تمنحنا الإجابات في اللحظة التي نطرح فيها الأسئلة، ولا تكشف لنا عن وجوه الحكمة حين نكون في أشد الحاجة إلى فهم ما يحدث. تتركنا نمضي وفي قلوبنا علامات استفهام، حتى إذا دارت الأيام، وانقشعت غيوم الحيرة، اكتشفنا أن بعض المنع كان عطاءً، وأن بعض التأخير كان رحمةً، وأن بعض الأبواب التي أُغلقت لم تكن لتمنعنا من الوصول، بل لتحمينا من طريقٍ لم نكن نعرف عاقبته.

كم من علاقةٍ انتهت فحزنّا عليها، ثم اكتشفنا أن استمرارها كان سيأخذ من أرواحنا أكثر مما يمنحها! وكم من فرصةٍ أفلتت من أيدينا، فظننا أننا خسرنا المستقبل، ثم جاءنا من الأقدار ما لم يكن يخطر لنا على بال! وكم من أمنيةٍ ألححنا في طلبها، وتأخر تحقيقها، ثم حمدنا الله أنها لم تتحقق كما أردنا!

ليس معنى ذلك أن كل خسارةٍ وراءها تعويض قريب، أو أن كل ألمٍ سنفهم حكمته في حياتنا الدنيا، فبعض الأقدار تظل أسرارها في علم الله، وبعض الجراح لا نعرف معناها إلا حين نلقى الله. ولكن المؤمن يتعلم أن ينظر إلى الحياة بعينٍ أوسع من لحظته الراهنة، وأن لا يجعل من عثرات الطريق حكمًا نهائيًا على

الرحلة كلها.

إننا كثيرًا ما نحاكم أقدارنا بما نراه اليوم، بينما يدبّر الله لنا ما لا نراه، ويعلم من عواقب الأمور ما غاب عن عقولنا. نحن نرى الخرق، ولا نرى الملك الذي ينتظر السفينة، ونرى الباب المغلق، ولا نعلم أي خطرٍ كان خلفه، ونبكي على ما فاتنا، ولا ندري ما الذي صُرف عنا بسببه.

ولعل أجمل ما نتعلمه من هذه القصة ألا نتعجل الحكم على أقدارنا، وألا نظن أن كل ما يؤلمنا شر، أو أن كل ما نتمناه خير. فليست الحياة دائمًا كما نريد، لكنها تجري بحكمة من يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

فإذا خُرقت سفينتك يومًا، فلا تتعجل البكاء عليها، ولا تظن أن رحلتك قد انتهت؛ فقد يكون في ذلك الخرق سرّ نجاةٍ لا تدركه الآن.

ولعل أجمل الطمأنينة أن تعيش وأنت تعلم أن الله لا تخفى عليه خافية، وأن لطفه قد يأتيك في صورة منع، وأن رحمته قد تتخفى خلف بابٍ موصد، وأن ما لم تفهمه اليوم قد تحمده غدًا.

فليس كل خرقٍ غرقًا، وليس كل فقدٍ حرمانًا، وليس كل ما انكسر في أيدينا كان ينبغي له أن يبقى... فكم من سفينةٍ أنقذها خرقها، وكم من قلبٍ أنقذه قدرٌ ظنّه يومًا انكسارًا!